

من أساليب العربية
في الدعاء

للدكتور إبراهيم السامرائي
عضو مؤازر في المجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

أريد أن أعرض لكلمة "الدعاء" في لغة التنزيل العزيز ثم أخلص من ذلك
إلى النظر في الدعاء لغة وأسلوباً.

قال الله تعالى: "وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين"^(١).

قال أبو إسحق الزجاج:

"يقول: ادعوا من استدعيتم طاعته ورجوتهم معونته في الإتيان بسورة
مثله"^(٢).

وقال الفراء: "وادعوا شهداءكم من دون الله".

يقول: ألهتكم، يقول: استغيثوا بهم، وهو كقولك للرجل: إذا لقيت العدو خالياً
فادع المسلمين، ومعناه: استغث بالمسلمين، فالدعاء ههنا بمعنى الاستغاثة.

وقد يكون الدعاء عبادة كما في قوله تعالى: "إن الذين تدعون من دون

(١) ٢٣ البقرة.

(٢) اللسان (د ع و).

الله عباد أمثالكم^(٣)، وقوله بعد ذلك: "فادعوهم فليستجيبوا لكم".

يقول: ادعوهم في النوازل التي تنزل بكم إن كانوا آلهة كما تقولون يجيبوا دعاءكم، فإن دعوتهم فلم يجيبوكم فأنتم كاذبون أنهم آلهة.

وقال أبو إسحاق في قوله: "أجيب دعوة الداع إذا دعان"^(٤):

معنى الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فضرب منها توحيدهِ والثناء عليه كقولك: يا الله لا إله إلا أنت، وكقولك: ربنا لك الحمد، إذا قلته فقد دعوته بقولك: "ربنا" ثم أتيت بالثناء والتوحيد.

ومثله قوله تعالى: "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ"^(٥) فهذا ضرب من الدعاء، والضرب الثاني: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه كقولك: اللهم اغفر لنا، والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا كقولك: اللهم ارزقني مالاً وولداً، وأن سمي هذا جميعه دعاء؛ لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يارب، يا رحمن؛ فلذلك سمي دعاء.

وفي حديث عرفة: أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وإنما سمي التهليل والتحميد والتمجيد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر:

(٣) ١٩٤ الأعراف.

(٤) ١٨٦ البقرة.

(٥) ٦٠ غافر.

إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي اعطيته أفضل ما أعطي السائلين.

وأما قوله عز وجل:

"فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"^(٦)، المعنى أنهم لم يحصلوا مما كانوا ينتحلونه من المذهب والدين وما يدعونه إلا على الاعتراف بأنهم كانوا ظالمين، هذا قول أبي إسحاق^(٧).

قال: والدعوى اسم لما يدعيه، والدعوى تصلح أن تكون في معنى الدعاء،

لو قلت: اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين أو دعوى المسلمين جاز، حكى ذلك سيبويه، وأنشد:

قالت ودعواها كثير صخبه

وأما قوله تعالى: "وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين"^(٨) فيعني أن دعاء أهل الجنة تنزيه الله وتعظيمه، وهو قوله:

"دعواهم فيها سبحانك اللهم"^(٩) ثم قال: "وآخر دعواهم...".

أخبر أنهم يبتدئون دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه ويختمونه بشكره والثناء عليه، فجعل تنزيهه دعاء وتحميده دعاء، والدعوة هنا معناها الدعاء.

(٦) ٥ الاعراف.

(٧) اللسان (د ع و).

(٨) ١٠ يونس.

(٩) ١٠ يونس.

وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الدعاء هو العبادة،
ثم قرأ: "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ"^(١٠).

وقال مجاهد في قوله:

"وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ"^(١١)، قال:
يصلون الصلوات الخمس.

وروي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى:

"لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا"^(١٢)، أي لن نعبد إلها دونه.

والدعاء: الرغبة إلى الله - عز وجل.

وفي الحديث: لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل
المدينة، يعني الشيطان الذي عرض له في صلاته، وأراد بدعوة سليمان - عليه
السلام - قوله: وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي.

ومنه الحديث: "سأخبركم بأول أمري دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى"،
دعوة إبراهيم - عليه السلام - قوله تعالى: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ"^(١٣)، وبشارة عيسى - عليه السلام - قوله تعالى: "وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ".

(١٠) ٦٠ غافر.

(١١) ٢٨ الكهف.

(١٢) ١٤ الكهف.

(١٣) ١٢٩ البقرة.

وفي حديث معاذ - رضي الله عنه- لما أصابه الطاعون قال: ليس
برجز ولا طاعون ولكنه رحمة ربكم ودعوة نبيكم - صلى الله عليه وسلم-، أراد
قوله: اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون.
دعوت الله له بخير وعليه بشر.

والدعاء وأحد الأدعية.

هذا هو معنى الدعاء ودلالته في اللغة والاستعمال.

وقد بلغت العربية في أسلوب الدعاء مبلغاً قل أن نقف على نظيره في
سائر اللغات القديمة.

قلت: "اللغات القديمة" لأخصص أن هذا الأسلوب في صورته ودلالاته
خاص بالعربية القديمة وأن العربية المعاصرة قد خلت من هذه الصور البيانية
التي تبرز في أساليب الدعاء والأساليب الأخرى. ألا ترى أن هذه العربية
الجديدة قد خلت من "المثل"، وأن كل ما يتمثل به المعربون أحياناً هو مثل قديم
استعير لمطالب الحياة الجديدة في بعض الأحيان. وقد يقال: إن اللغات في
عصرنا غير محتاجة إلى هذه الألوان الفنية لأن حاجات جديدة قد جدت
صرفت المعربين إلى أن يجدوا في اللغة ما يفي بها.

ومن هنا كانت دراسة هذه الأساليب القديمة والوقوف عليها شيئاً يدخل
في معرفة تاريخ هذه اللغة العريقة.

قالوا: الدعاء ينصرف للخير كما ينصرف للشر، وقد يدرك هذا أحياناً
باستعمال الأداة: "اللام" في الخير، و"على" في الشر فيقال: أدعو لك، وأدعو
عليك.

ويتجاوز استعمال هاتين الأداتين أسلوب الدعاء إلى أسلوب "الخير" فينصرف كذلك إلى الخير والشر فيقال مثلاً: يوم لنا ويوم علينا.

وقد بقي في استعمال "على" شيء من هذا الجنوح إلى الشر^(١٤)، ولعل من أجل ذلك عيب قول أبي تمام في مطلع قصيدته البائية:

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

قلت: إن الأدب القديم قد حفل بكثير من فنون الدعاء ولنعرض لذلك فتقول:

تختلف جمل الدعاء في العربية فهي قد تبدأ بالفعل، وقد تبدأ بالاسم المرفوع، وقد تبدأ باللام ومدخوله، وكثيراً ما يأتي معنى الدعاء في عبارة صدرت بالمصدر المنصوب.

فمما بدئ بالفعل قولهم:

هديت خيراً (بالبناء للمفعول)، ولقيت خيراً، وصادفت رشداً، ووقيت الشر، وسهل الله عليك، وفرج الله عنك، كل ذلك وغيره مما يتقرب به دعاء. ولك أن تتسع في هذا فتتشيئ ما تريد مما ترمي به إلى الخير مفصلاً عن رغبتك في ذلك، فيؤدي الدعاء كأن تقول: هداك الله وبلغت مرادك، ووفقك الله.

ومثل هذا ما ينصرف إلى الشر إرادة الدعاء نحو:

عدمت خيراً ولقيت شراً، وقاتلك الله، ولعنك الله وغير ذلك.

ومن هذا ألفاظ التصليّة والتسليم والرحمة والرضوان على النبيين والأولياء

(١٤) على أنه ينبغي الاحتراز في هذا فنقول: قد تستعمل "على" في الدعاء للخير كقولنا: عيسى

- عليه السلام - وغيره من أنبياء الله مثلاً.

كان يقال: عليه أركى الصلاة وأتم التسليم.

وسائر الصالحين، فنقول في "الصلاة والسلام" على نبينا محمد: صلى الله عليه وسلم.

ونقول: عيسى وموسى وسائر الأنبياء: عليهم السلام.

ونقول: ومن حديث علي - عليه السلام - أو رضي الله عنه، وقد ورد أيضاً كرم الله وجهه.

ونقول: وكان عثمان بن عفان - رضي الله عنه -.

كما نقول: ومما أثر عن الإمام الشافعي وأضرابه: رضي الله عنهم وقد تبدأ عبارة الدعاء بالاسم المرفوع نحو:

رحمة الله عليه، ورضوان الله عليه، وسلام الله عليه...

كما نقول: لعنة الله عليه^(١٥)، وقد يعطف عليه كقولهم: لعنة الله وغضبه عليه.

وقد يؤخر المرفوع فيبدأ باللام ومدخوله نحو.

لك الحمد ولك الخير ولك السعد.

كما نقول: لك الله، قال المتنبي في رثاء جدته:

لك الله من مفجوعة بحبيبيها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

كما يقال: لك الويل، قال الفرزدق:

(١٥) أقول: والدعاء باستعمال "غضب الله" ينزل بالمدعو عليه من لغة العامة أيضاً في عصرنا.

لك الويل لا تقتل عطية إنه أبوك ولكن غيره فتبدل

وقد ترد عبارة الدعاء مصدرة بـ "لا" النافية بعدها فعل ماض نحو: لا
فض فوك في استحسان قول أحدهم كأنه قيل: أحسنت.

والمعنى: لا تكسر أسنانك، والفم ههنا الأسنان كما يقال: سقط فوه،
يعنون الأسنان.

قد ترد العبارة بالفعل المضارع: لا يفضض الله فاك.

ومن ذلك حديث النابغة الجعدي لما أنشد الرسول الكريم القصيدة الرائية
قال: لا يفضض الله فاك، قال: فعاش مائة وعشرين سنة لم تسقط له سن.

وفي حديث العباس بن عبدالمطلب أنه قال: يا رسول الله أني أريد أن
أمتدحك، فقال: قل لا يفضض الله فاك، ثم أنشده الأبيات القافية.

ومثل هذا: لا عدمتك، ولا ظفر حاسدوك.

ومن المناسب أن نشير إلى أن الفعل "زال" المفيد للاستمرار يترشح
للدعاء إذا سبقه "لا" كقوله ذي الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى ولا زاك منهلاً بجرعائك القطر

ومن المفيد أن أشير قبل الكلام على "انهلال القطر" في البيت، إلى أن
صدر البيت قد حفل بنمط آخر من الدعاء وذلك بالأمر في "يا اسلمي"
والخطاب إلى "دار مي". يدعو الشاعر للدار أن تسلم على البلى فلا ينال منها
الزمان شيئاً.

أقول: واستعمال الأمر كثير في لغة الدعاء، ولعله أكثر سيرورة من الصيغ الأخرى وهذا يعني أن "الأمر" قد خرج إلى الدعاء ولالتماس رغبة في شيء ينصرف إلى الخير حيناً وإلى الشر حيناً آخر. ويأتي في لوازم هذه الجمل الدعائية أسلوب النداء المتمحض للدعاء كقولنا: اللهم انصرنا على الأعداء، وربنا اهدنا إلى سواء السبيل. وأنت واجد من هذا الأسلوب الشيء الكثير مما حفلت به لغة التنزيل العزيز كما سنرى.

ولنعد إلى بيت ذي الرمة فنقول إن دعاءه بانهلال القطر أسلوب درج عليه العرب في جاهليتهم وإسلامهم. وإن هذا الدعاء يكاد يكون أحياناً كالتحية ألا ترى أن هذا يتحقق في قول النابغة:

نبئت نعماً على الهجران عاتبة سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري

فإذا كان غيث^(١٦) كان منه لهم سقي وخصب ثم رعي.

وليس قولهم: "رعاك الله" ألا مشيرة إلى هذا الأصل القديم الذي هو الرعي للسائمة من الإبل وغيرها، فكأن قولهم "رعاك الله" المراد بها "الرعاية" تلمح إلى دأب الرعاء مع أبلهم.

ومن الغيث قالوا جادك الغيث أي أصابك غيث جود وهو الغزير.

والدعاء بالسقي كثير في الأدب القديم، قال جرير:

أتذكر إذا تودعنا سلمى بفرع بشامة سقي البشام

(١٦) أقول فرق العرب بين الغيث والمطر فكان الغيث في الأغلب الأعم خيراً وخصباً وبركة، ولن يكون عذاباً البتة، أما المطر فينصرف إلى العذاب، كما ينصرف إلى حقيقته غير أنه لم يرد في القرآن إلا في معرض العذاب والشر وذلك في خمس عشرة آية في سور مختلفة.

وقوله:

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

وليس اتفاقاً أن يجيء "الغوث" بمعنى النجدة من "الغيث" وهو الرحمة والخصب والخير والبركة، وهو غير "المطر" في هذه الخصوصية الدلالية.

قال الأصمعي: أخبرني أبو عمرو بن العلاء قال:

سمعت ذا الرمة يقول: قاتل الله أمة بني فلان ما أفصحها!

قلت لها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت غثنا ما شئنا.

والمعنى: سقيننا ما شئنا. وهكذا عدلت من "المطر" في سؤال السائل إلى

"الغيث"...

وقد تأتي عبارة الدعاء مبدوءة بمصدر منصوب كقولهم: سقيا ورعيا،
وحمداً لك اللهم، وأهلاً وسهلاً وغير هذا.

وقد يأتي أسلوب الدعاء رسماً من رسوم الأدب مما يقتضيه الظرف
وحسن المعاشرة، ومن ذلك قولهم للمملك دعاء له:

"بالرفاء والبنين" أي بالالتئام والاتفاق وحسن الاجتماع.

قال ابن السكيت: وإن شئت كان معناه بالسكون والهدوء والطمأنينة، ففي
الحالة الأولى يكون الأصل "رفاً"، وفي الحالة الثانية يكون الأصل "رفاً" آخره
ألف من قولهم: رفوت الرجل إذا سكنته.

قالوا: رفاه فرقة وترقيئاً: دعا له: قال له: بالرفاء والبنين.

وقالوا: رقع بمعنى رفا. وفي الحديث: كان إذا رقع إنساناً قال: بارك الله عليك.

ومن هذا الباب قولهم في الدعاء للعاطس: يرحمك الله.

وهو التشميت أي ذكر الله - عز وجل - على كل حال، وقيل: معناه هداك الله إلى السميت وذلك لما في العاطس من الانزعاج والقلق.

وقد سمته إذا عطس، قال له: يرحمك الله، أخذ من السميت إلى الطريق والقصد، كأنه قصده بذلك الدعاء، أي جعلك الله على سميت حسن.

ومن هذا الباب أيضاً ما يقال للعائر:

حوجاً لك: أي سلامة.

ولما كان الحديث عن العائر فمن المفيد أن نشير إلى ما جاء في هذا من قولهم:

التعس: العثر، والتعس أن لا ينتعش العائر من عثرته وأن ينكس في سفال.

قال أبو اسحاق في قوله: "فتعساً لهم وأضل أعمالهم"، يجوز أن يكون نصباً على معنى أتعسهم الله. وقال الأعشى:

بذات لوث عفناة إذا عثرت فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا

ويدعو الرجل على بعيه الجواد إذا عثر فيقول تعساً! فإذا كان غير جواد ولا نجيب فعثر قال له: لعا.

وقد يجتزأ من "لعا" بقولهم: عا لك عالياً للدعاء بالإقالة، أنشد ابن الأعرابي:

أخاك الذي إن زلت النعل لم يقل: تعست، ولكن قال: عالك عاليا

ما جاء في الدعاء في لغة التنزيل

قال تعالى:

ألا بعداً لعاد قوم هود ٦٠ هود.

ألا بعداً لثمود ٦٨ هود.

ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ٦٨ هود.

والبعد هنا الهلاك، وقوله: بعدت ثمود أي هلكت، قال مالك بن الريب:

يقولون: لا تبعده، وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا

وقد فرق في الفعل بين البعد بمعنى الهلاك، والبعد بمعنى الابتعاد، ف قيل في الأولى "بعد" مثل "فرح"، وفي الثانية: "بعد" مثل "كرم" وهذا شيء من لطائف هذه اللغة الكريمة. قال المتنبي:

أبعد بعدت بياضاً لا بياض له لاننت أسود في عيني من الظلم

ومن الدعاء قوله تعالى:

تبت يدا أبي لهب

أي ضللتا وخسرتا، وقال:

أخسر بها من صفقة لم تستقل تبت يدا صافقها ماذا فعل

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

فتعساً لهم وأضل أعمالهم ٨ محمد.

أي هلاكاً لهم.

وقوله تعالى:

"واجعلني لك مخيئاً".

أي خاشعاً مطيعاً. وأخبت لله أي خشع وتواضع.

وفي التنزيل العزيز: "فتخبت له قلوبهم" أي تخشع.

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ١٠ يونس.

"ولا تعدم الآية الأولى من "الفاتحة أن تكون مفيدة للدعاء لدى من يتلوها:

الحمد لله رب العالمين.

ومثل هذا دعاء الصلاة: "لك الحمد ملء السموات والأرض".

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

"دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام" ١٠ يونس. وقد يتوصل

إلى الدعاء بالمصدر "حمداً" فيقال: حمداً لك اللهم.

ومن الدعاء في لغة التنزيل العزيز:

"فسحقاً لأصحاب السعير" ١١ الملك

والسحق: البعد، فكأن المعنى فبعداً لأصحاب السعير.

ومكان سحق أي بعيد.

وفي التنزيل: "أو تهوي به الريح في مكان سحيق".

وحديث "السلام" مستفيض في لغة التنزيل، وهو في أي كثير يراد به

الدعاء ومنه:

وإذا جاء الذين يؤمنون بأياتنا فقل سلام عليكم ٥٤ الأنعام

ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم. ٤٦ الأعراف
وتحييتهم فيها سلام. ١٠ يونس
لقد جاءت رسلنا بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ٦٩ هود
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ٢٤ الرعد
وسلام عليه يوم ولد... ١٥ مريم
والسلام علي يوم ولدت... ١٥ مريم
وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين ١٨١ الصافات
ومن الدعاء قوله تعالى:

"ربنا اطمس على أموالهم" ٨٨ يونس.

أي غيرها. وقد ورد "الطمس" في لغة التنزيل ومنه قوله:

"ولو نشاء لطمسنا على أعينهم"

وقال تعالى:

"الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب" ٢٩ الرعد.
ذهب سيبويه بالآية مذهب الدعاء.

ويحسن بنا أن نقف طويلاً على كلمة "طوبى" التي أفادت الدعاء لنقول
فيها شيئاً وذلك لخصوصيتها واختلاف الأقوال فيها.

طوبى: فعلى من الطيب، كأن الأصل "طيبى" فصير إلى الواو لكان
الضمة فيها.

ويقال: طوبى لك وطوباك.

قال يعقوب: ولا تقل: طوبيك.

وجاء في "التهذيب": إن العرب تقول طوبى لك، ولا تقول طوباك.

وهذا قول أكثر النحويين إلا الأخفش فإنه قال: من العرب من يضيفها فيقول: طوباك.

وقال أبو بكر: طوباك إن فعلت كذا،

قال: هذا مما يلحن فيه العوام، والصواب: طوبى لك أن فعلت كذا وكذا.

وقالوا: طوبى: شجرة في الجنة.

وقرأ ثعلبة: "طوبى لهم وحسن مآب" فجعل "طوبى" مصدراً كقولك:

سقياً له. ونظيره من المصادر الرجعى، واستدل على أن موضعه نصب بقوله:

"وحسن مآب"

وهو خلاف ما ذهب سيبويه إلى أن موضع "طوبى" الرفع عطف عليه بقوله:

"وحسن مآب" مرفوعاً.

قال ابن جنى: وحكى أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني في كتابه

الكبير في القراءات، قال: قرأ علي أعرابي بالحرم: "طيبى لهم" فأعدت فقلت:

"طوبى"، فقال: "طيبى"، فأعدت فقلت: "طوبى"، فقال: "طيبى"، فلما طال علي

قلت: طوطو، فقال: طي طي.

قال الزجاج:

جاء في التفسير عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: أن "طوبى" شجرة

في الجنة.

وقيل: طوبى لهم حسنى لهم، وقيل: خبر لهم، وقيل: خيرة لهم.

وقيل طوبى اسم الجنة بالهندية وقيل بالحبشية^(١٧).

وقيل قتادة: طوبى كلمة عربية، تقول العرب: طوبى لك أن فعلت كذا

وكذا، وأنشد:

طوبى لمن يستبدل الطود بالقرى ورسلا بيقطين العراق وفومها

أقول: ومن قال: طوبى عربية فقد أدرك الصواب؛ وذلك لا أصل

"ط و ب، ط ي ب" من الأصول العربية القديمة في العربية وسائر أخواتها من اللغات السامية.

ومن الدعاء قوله - عز وجل -:

قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ٦٧ البقرة

قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ١٨ مريم

قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ٢٣ يوسف

ومن الدعاء أيضاً قوله تعالى:

هب لنا من لدنك رحمة ٨ آل عمران

والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين ٧٤ الفرقان

وقوله تعالى:

وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ١٩ النمل

وقوله تعالى:

(١٧) قال الصاغاني: فعلى هذا ينبغي أن تكون في الهندية "توبا" بالتاء؛ وذلك لأن الطاء غير

معروف في الهندية.

٤ المنافقون

قاتلهم الله أنى يؤفكون

ونجتزي بهذا القدر مما ورد من الدعاء في لغة التنزيل العزيز. وفي الحديث: "طوبى للمفردين" أي الذاكرين الله كثيراً.

ما جاء من صور أخرى في كتب العربية وسأوردها مرتبة بحسب أوائل المواد التي وردت فيها في تلك المظان:

أثر: جاء في دعاء المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - على الخوارج قوله:

"ولا بقي منكم أثر" أي مخبر يروي الحديث.

أرب:

وفي حديث عمر - رضي الله عنه - : أنه نقم على رجل قولاً قاله، فقال له: أربت عن ذي يدك، معناه: ذهب ما في يدك حتى تحتاج.

وفي خبر ابن مسعود: أن رجلاً اعترض النبي - صلى الله عليه وسلم - فصاح به الناس، فقال - عليه السلام - : دعوا الرجل أرب ماله، أي سقطت أعضاؤه وأصيبت.

قال: وهي كلمة تقولها العرب ولا يراد بها، إذا قيلت، وقوع الأمر كما يقال:

عقرى وحلقى، وقولهم: تربت يدك.

قال ابن الأثير: في هذه اللفظة ثلاث روايات.

إحداها "أرب" بوزن "علم" ومعناه الدعاء عليه، أي أصيبت آرابه وسقطت، وهي كلمة لا يراد بها وقوع الأمر، كما يقال: تربت يداك، وقاتله الله، وإنما تذكر في معنى التعجب.

قال: وفي هذا الدعاء من النبي - صلى الله عليه وسلم - قولان: أحدهما: تعجبه من حرص السائل ومزاحمته.

والثاني: أنه لما رآه بهذا الحال من الحرص غلبه طبع البشرية، فدعا عليه.

وقد قال في غير هذا الحديث: اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة.

أمت:

قال سيبويه: قالوا أمت في الحجر لافيك، أي ليكن الامت في الحجارة لا فيك،

ومعناه: أبقاك الله بعد فناء الحجارة، وهي مما يوصف بالخلود والبقاء.

ورفعوه وإن كان فيه معنى الدعاء، لأنه ليس بجار على الفعل، وصار كقولك: التراب له، وحسن الابتداء بالنكرة، لأنه في قسوة الدعاء.

أقول: وفي هذه العبارة التي تنصرف إلى الدعاء لون من ألوان صلة اللغة وأشكالها الأدبية بالبيئة، ومثل هذه البيئة البدوية الشيء الكثير الذي أبقته العربية في أدبها شعراً ونثراً ومثلاً وغير ذلك.

أوب:

وقال: للداخل: طوبة وأوبة.

بؤس:

وقالوا: بؤساً له، في حد الدعاء، وهو مما انتصب على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره.

وقالوا: جوساً له وبوساً. والجوس الجوع وستأتي.

برك:

والتبريك: الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة.

يقال: بركت عليه تبريكاً أي قلت له: بارك الله عليك. وبارك الله الشيء وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة.

وفي التنزيل العزيز: وباركنا عليه.

ومن هذا ما هو جار في اللغة المعاصرة فهم يقولون دعاء: بارك الله فيك، وبورك فيك، وبوركت.

بجل:

قال طرفة:

ألا إنني شربت أسود حالكا ألا بجلي من الشراب إلى بجل

قال: أراد الماء،

وقال شمر: وقيل أراد سقيت سم أسود.

بعد:

والبعد: الهلاك، وقد مر في الكلام على لغة التنزيل.

بلس:

ويقال: أرانيك الله على البلس غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبين ويشهر عليها من ينكل به وينادى عليه.

تیب:

التب والتباب: الهلاك والخسران.

وتباً لك نصب على الدعاء كما تقول سقياً لك.

وفي حديث أبي لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا.

وقد مر بنا هذا الدعاء في التنزيل.

ترب:

يقال: ترباً له وجندلاً، وهذا من الأسماء التي تفيد الذات أجريت مجرى

المصادر المنصوبة على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره في الدعاء.

وكأنه بدل من قولهم:

تربت يداه وجندلت

وفي الحديث: "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: تنكح المرأة

لميسمها ولمالها ولحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك".

قال أبو عبيد: قوله: تربت يداك، يقال للرجل إذا قل ماله: قد ترب أي

افتقر، حتى لصق بالتراب.

ومنه قوله تعالى: أو مسكينا ذا متربة.

قال: ويرون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يتعمد الدعاء عليه بالفقر، ولكنها كلمة جارية على ألسن العرب يقولونها، وهم لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر بها.

وقيل معناها لله درك، وقيل: أراد به المثل ليرى المأمور بذلك الجد، وأنه إن خالفه فقد أساء.

وقيل: هو دعاء على الحقيقة، فإنه قد قال لعائشة - رضي الله عنها:

تربت يمينك، لأنه رأى الحاجة خيراً لها.

قال: والأول الوجه. وبعضه قوله في حديث خزيمة رضي الله عنه: أنعم صباحاً تربت يداك، فإن هذا دعاء له وترغيب في استعماله ما تقدمت الوصية به. ألا تراه قال: أنعم صباحاً، ثم عقبه بقوله: "تربت يداك".

وكثيراً ما ترد للعرب ألفاظ ظاهرها الذم وإنما يريدون بها المدح كقولهم: لا أب لك، ولا أم لك، وهوت أمه، ولا أرض لك ونحو ذلك.

وقال بعض الناس: أن قولهم: تربت يداك يريد به استغنت يداك.

قال: وهذا خطأ لا يجوز في الكلام، ولو كان قال لقال: أتربت يداك.

ترك:

والترك: العذق إذا نفض فلم يبق فيه شيء، ولا بارك الله فيه ولا تارك ولا دارك كله اتباع.

وجاء في أراجيزهم المشهورة في شواهد العربية:

لقد رأيت عجباً مذ أمساً
عجائزاً مثل السعالي خمسا
يأكلن ما في رحلهن همسا
لا ترك الله لهن ضرسا
ولا لقين الدهر إلا تعسا

تعس:

لقد مر بنا في قوله تعالى:
"فتعساً لهم وأضل أعمالهم".
وأصل التعس العثر.

وقال الشاعر:

وأرماحهم ينهزتهم نهز جمّة يقلن لمن أدركن تعساً ولا لعا
على أن استعمال "التعس" وإرادة الدعاء فيه قد بقي في اللغة المعاصرة
وإن جهل المعربون أنه دعاء، فيقال مثلاً: **تَعَساً لك**.
ويقال: **تعساً له ونكساً**.
وفي حديث أبي هريرة: "تعس عبد الدينار وانتكس أي انقلب على رأسه،
وهو دعاء عليه بالخيبة.

توس:

ويقال: **توساً لك**، مثل قولهم: **بوساً لك**، وقد مر بنا ذلك.

توب:

التماس التوبة في أحاديث الدعاء كثير، كقولهم: اللهم اغفر لنا ذنوبنا
وتب علينا.

وفي دعاء السفر: يقال:

توباً لربنا أوبا، أي توباً راجعاً مكرراً.

تكل:

يقال في الدعاء على رجل:

تكلتك أمك.

والثكل: الموت والهلاك. والأم تاكل وتكول وتكلى.

وفي الحديث أنه قال لبعض أصحابه: تكلتك أمك أي فقدتك، والثكل فقد الولد.

ولا يقال: تكلك أبوك.

على أنه يقال في الدعاء: لا أب لك كما يقال لا أم لك.

وقال أبو علي: "لا أبا لك" كلام جرى مجرى المثل، وذلك أنك إذا قلت
هذا فغفرك لا تنفي في الحقيقة أباه، وإنما تخرجه مخرج الدعاء عليه، أي أنت
عندي ممن يستحق أن يدعى عليه بفقد أبيه، وأنشد توكيداً لما أراد من هذا
المعنى قوله:

ويترك أخرى فردة لا أبا لها.

ولم يقل: لا أخت لها، ولكن لما جرى هذا الكلام على أفواههم: لا أبا لك
ولا أبا لك قيل مع المؤنث على حد ما يكون عليه مع المذكر، فجرى هذا نحواً
من قولهم لكل أحد من ذكر وأنثى أو اثنين أو جماعة:

الصيف ضيعت اللبن.

ويؤكد عندك خروج هذا الكلام مخرج المثل كثرته في الشعر، وأنه يقال لمن له أب ولمن لا أب له، لأنه إذا كان لا أب له لم يجز أن يدعى عليه بما هو فيه لا محالة، ألا ترى أنك لا تقول للفقير أفقره الله؟ فكما لا يقول لمن لا أب له: أفقدك الله أباك، كذلك تعلم أن قولهم لمن لا أب له: "لا أبا لك" لا حقيقة لمعناه مطابقة للفظه، وإنما هي خارجة مخرج المثل على ما فسرهُ أبو علي، قال عنتره:

فاقني حياءك لا أبا لك! واعلمي إني امرؤ سأموت، إن لم أقتل

ويدلك على أن هذا ليس بحقيقة قول جرير:

يا تيم تيم عدي لا أبا لكم لا يلقينكم في سوءة عمر

فهذا أقوى دليل على أن هذا القول مثل لا حقيقة له، ألا ترى أنه لا يجوز أن يكن للتيم كلها أب واحد، ولكنكم أهل للدعاء عليه والإغلاظ له؟

وروي عن النضر بن شميل: أنه سأل الخليل عن قول العرب: لا أبا لك، فقال: معناه لا كافي لك.

وقال الفراء: قولهم: "لا أبا لك" كلمة تفصل بها العرب كلامها.

أقول: ومقالة الفراء ذات قيمة ولو أنك قرأت قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسأم

أحسست أن قوله: "لا أبا لك" كلام معترض لا يدل على خصوصية معنوية، بل هو تعبير جميل استحسناه فاستعملوه كثيراً وأقيم به الوزن في البيت.

ألا ترى أن قولهم في الشعر: هديت ووقيت ونحوها شيء يتم به الوزن وليس من إرادة للدعاء.

أما قولهم: قال: هو ذم وسب، أي أنت لقيط لا تعرف لك أم، وقيل قد يقع مدحاً بمعنى التعجب منه.

أقول: وهذا الشيء الأخير، وهو أن عبارة الذم الدعائية يراد بها المدح، جارية في الألسن العامية الدارجة، ألا تراهم يقولون: يخرب بيتك أو انهجم بيتك، أو الله يلعنك إرادة المدح على طريقة التعجب؟

ثلب:

والإثلب أو الأثلب: التراب.

وقالوا: بغية الأثلب على الدعاء، كأنهم قالوا بغية التراب أو الحجر.

وقالوا: الأثلب لك والتراب، والنصب على الدعاء كأنه مصدر.

وهكذا نرى أن "التراب" وما في معناه أو يقرب منه قد دخل في اللغة القديمة في

السب والشتم والذم فخرج على الدعاء، وقد مر بنا قولهم: تربت يدك.

جحد:

والجحد: القلة من كل شيء.

ونكداً له وجحداً دعاء عليه.

جرب:

والعرب تقول في دعائها على الإنسان: ما له حرب وجرب. والحرب كالكلب، وقوم حربى كلبى والفعل كالفعل.

والجرب معروف.

جندل:

انظر: تريا وجندلا الذي مر بنا قبل صفحات.

جوس:

انظر "بؤس".

حرب:

انظر جرب.

حرر:

تقول العرب: ما له أحر الله صدره، وذلك في الدعاء على الإنسان.

ويقولون أيضاً:

رماه الله بالحرّة والقرّة، أي بالعطش والبرد.

حلق:

ومما يدعى على المرأة قولهم: عقرى حلقى وعقراً حلقاً أي عقرها الله وحلقها أي حلق شعرها أو أصابها وجع في حلقها.

حوب:

قالوا: إليك أرفع حوبتي أي حاجتي، وفي رواية: نرفع حوبتنا إليك.

وفي الدعاء على الأنسن:

ألحق الله بك الحوبة، أي الحاجة والمسكنة والفقير.

حوج:

يقال للعائر: حوجاً لك أي سلامة، وقد مر بنا هذا.

خضر:

ويقال في الدعاء: أباد الله خضراءهم، أي سوادهم ومعظمهم، وقيل:

خصبهم وسعتهم.

وقالوا: رمى الله في عيني فلان بالأخضر، وهو داء يأخذ العين.

خطأ:

في حديث ابن عباس: أنه سئل عن رجل جعل أمر امرأته بيدها فقالت:

أنت طالق ثلاثاً. فقال: خطأ الله نواها ألا طلقت نفسها.

ويقال لمن طلب حاجة فلم ينجح: أخطأ نوؤك، أراد الله نواها مخطئاً لا

يصيبها مطره.

ويروى: خطى الله نواها، بلا همز.

خلب:

وفي حديث الاستسقاء: اللهم سقيا غير خلب.

خير:

ومن دعائهم في النكاح: على يدي الخير واليمن.

ذرا:

وجاء: أعود بكلمات التامات من شر ما خلق وذرا وبراً.

رفأ:

قالوا: بالرفاء والبنين في الدعاء للمملك وقد مر بنا انظرها قبل صفحات.

رفح:

انظر الموضوع نفسه (رفأ).

رقأ:

وروى المنذري عن أبي طالب في قولهم: لا أرقأ الله دمعته، قال: معناه

لا رفع الله دمعته.

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها-: فبت ليلتي لا يرقأ لي دمع.

ورقأت الدمعة ترقأ ورقوءاً: جفت وانقطعت.

سحق:

ويقال: سحقاً لهم أي هلاكاً، وانظر ما جاء من هذا في لغة التنزيل مما

أفاد الدعاء وقد ذكر قبل صفحات.

سلم:

مر بنا حديث "السلام" ودلالته في الدعاء في جملة آيات كريمة.

طمس:

مر بنا في الكلام على ما في آي القرآن من الدعاء.

طوب:

سبق الكلام على "طوبى لهم".

ظبي:

(وانظر عدد):

وقولهم: به لا بظبي، يراد به الهلكة كما ورد في قول الفرزدق يخاطب مسكيناً الدرامي، وكان قد رثى زياد بن أبيه فقال:

أمسكين، أبكى الله عينك إنما	جرى في ضلال دمعها فتحذرا
أقول له لما أتاني نعيه	به لا بظبي بالصريمة أعفرا
أتبكي امرءاً من آل ميسان كافراً	ككسرى على عدائه أو كقيصرا

عثج:

وجاء في تلبية بعض العرب في الجاهلية:

لا هم لولا أن بكرنا دونكما
يعبدك الناس وفجرونكما
ما زال منا عثج يأتونكما

العثج، بفتحتين: الجامعة من الناس.

عقر:

انظر "حلق".

وجاء أيضاً:

وقالت أم سلمة لعائشة - رضي الله عنها - عند خروجها إلى البصرة:
سكن الله عقيرك فلا تصحريها، أي أسكتك الله بيتك وعقارك وسترك فيه
فلا تبرزيه.

عمي:

قالوا: وإذا أرشدك إنسان الطريق، فقل:

لا يعم عليك الرشد.

وهو دعاء له بالخير والهدى.

عمر:

وعمره الله وعمره أي أبقاه، على الدعاء.

غبط:

وجاء في الدعاء: اللهم غبطاً لا هبطاً، أي نسألك الغبطة ونعوذ بك أن
نهبط عن حالنا.

غرب:

وجاء في دعاء ابن هبيرة:

أعوذ بك من كل شيطان مستغرب وكل نبطي مستعرب.

غض:

ويقال أباد الله غضراءهم، أي سعتهم وخصبهم.

غفر:

غفار! غفر الله لها.

قال ابن الأثير: يحتمل أن يكون دعاء لها بالمغفرة أو إخباراً أن الله تعالى قد غفر لها.

غور:

وقالوا: غارهم الله بخير أي أصابهم بخصب وغيث.

وفي الدعاء: اللهم غرنا منك بغيث وبخير.

فدي:

ويقال: فدى لك أهلي، على الدعاء أي يفديك أهلي.

ويقال: فداك أبي كما يقال: فديت.

وكثيراً ما نقرأ: جعلت فداك.

وأنشد الأصمعي للنابغة:

مهلاً! فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

ومنه قول نفيلة الأكبر الأشحعي (أزر):

ألا أبلغ أبا حفص حفص رسولاً فدى لك من أخي ثقة إزاري

قتل:

انظر ما جاء من أسلوب الدعاء في أدب القرآن الكريم.

قذي:

وجاء قول جميل:

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقواح

قرر:

ويقال: أقر الله عينه، من المقرر وهو الماء البارد.

كثكث:

وروي عن صفوان بن أمية أنه قال يوم حنين عند الجولة التي كانت من المسلمين فقال أبو سفيان: غلبت والله هوزان، فأجابه صفوان وقال:
بغيك الكثكث لأن يريني رجل من قريش أحب إلي من أن يريني رجل من هوزان.

كلا:

وقال الشاعر:

أن سليمى والله يكلؤها ضنت بزاد ما كان يرزوها

لحي:

وفي حديث لقمان: فلحيا لصاحبنا لحيأ أي لوماً وعدلاً، وهو نصب على المصدر كسقيا ورعيا.

وقال عنتره:

ألم تعلم لحاك الله أني أجم إذا لقيت ذوي الرماح

لقي:

انظر "ترك".

نفس:

وجاء في الدعاء: اللهم نفس عني، أي فرج عني ووسّع علي.

نكد:

انظر "جحد"

هبل:

الهبل: الثكل، وهبلته أمه بمعنى ثكلته.

وهبلت أمك على الدعاء.

وفي حديث عمر - رضي الله عنه - حين فضل الوادعي سهمان الخيل

على المقاريف فأعجبه، فقال: هبلت الوادعي أمه لقد أذكرت به!

فالثكل هو الأصل في المعنى، ثم يستعمل في معنى المدح والإعجاب،

يعني ما أعلمه وما أصوب رأيه.

وفي حديث الشعبي: فقليل لأمك الهبل.

هنا:

وقالوا: هنئت ولا تنكأ، أي هناك الله بما نلت ولا أصابك وجع. وقالوا: لا

هناك المرتع، أي لا أصبت خيراً.

هوي:

وقال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه:

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يؤدي الليل حتى يؤوب

ومعنى هوت أمه أي هلكت أمه.

وما زال هذا الدعاء معروفاً لدى الأمهات في العراق في لغتهن الدارجة

حين يعلمن بوفاة شاب يقلن: ماتت أمه.

ويب:

كلمة مثل ويل يراد بها التعجب.
ويباً لهذا الأمر أي عجباً.
وويباً لزيد مثل وويلاً لزيد.
ومنه قول كعب بن زهير:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة علي أي شيء ويب غيرك ذلكا؟

ويل:

كلمة مثل ويح ألا إنها كلمة عذاب، ومن هنا وردت في أسلوب الدعاء في قوله تعالى:

ويل للمطففين...

وقوله: ويل لكل همزة لمزة.

وفي آيات أخرى:

وقالوا: ويلمه والأصل: ويل لأمه فحذفت اللام ثم الهمزة وركبت الكلمتان على طريقة النحت.

ومن أقوال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ويلمه مسعر حرب.

أقول: هذه نماذج بل شذرات من العربية مما استقرتته من "لسان العرب" وغيره تشتمل على أسلوب الدعاء في العربية.

وعندي أن الألفاظ التي تقدم بين يدي الملك والأمير والرئيس والعالم الجليل وغير هؤلاء من أهل الشأن ضرب من أسلوب الدعاء في العربية المعاصرة نحو:

جلالة الملك.

ومعالي الوزير.

وسعادة الأمير.

وسماحة العالم، ونيافة الحبر.

وبعد، ألم يتوصل النابغة الذبياني إلى النعمان مخاطباً بقوله:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامح

ثم أني قد وجدت من فيض هذه العربية السمحة ما يحق للمرء أن يملأ
ماضغيه فخراً إذا قرأ مستمتعاً بعض ما ورد من بيان التوحيد في "إشارات
الإلهية" فوجد من مادة الدعاء أعلق العربية النفيسة.

اللهم إنني قد خدمت كتابك الكريم واللغة العلية التي جاءت فيه فاكتبني
مع الصالحين.